

”الثقافة الشعبية في المجتمع العربي“

عرضة وتقديم د. مسعود ضاهر

تمهيد

العربي بموضوع الثقافة الشعبية الذي يطرح كل عام من زاوية منهجية معينة ومقاربة بحثية متعمقة تفضي في النهاية الى تراكم معرفي، كمي ونوعي، يغني المكتبة العربية حول هذا الموضوع. وتمت الموافقة كذلك على أن يستدعي باحثون اجتماعيون من جنسيات مختلفة للمشاركة في عرض تجارب بلدانهم وكيفية تعاطيها العلمي مع موضوع «الثقافة الشعبية» حتى تتم الاستفادة منها في ضوء التجارب الحية المعاصرة. لذلك كانت ندوة «الثقافة الشعبية» في قابس هذا العام زاخرة بالعطاء العلمي المميز، أبحاثاً ومناقشات، بحيث أجمع المشاركون فيها على جدية الأبحاث المقدمة، وعلى عمق المناقشات التي ساهم فيها، إلى جانب رجال العلم والاختصاص، جمهور متميز من الطلبة التونسيين الذين جمعوا بين عمق الثقافة وأدب الثقافة الذي كدنا نفتقده في كثير من الندوات العلمية العربية.

في إطار مهرجان قابس الدولي لهذا العام دعت الجمعية العربية لعلم الاجتماع الى ندوة متخصصة حول موضوع «الثقافة الشعبية في المجتمع العربي»*. واقترحت في ورقة الدعوة ان تتناول الاوراق موضوعات اجتماعية تبرز الثقافة الشعبية في المجتمع العربي حتى القرن التاسع عشر. واقترح، في نهاية الندوة، أن تكون مرحلة الاستعمار الاوروي للمجتمع العربي موضوعاً لندوة لاحقة تلوها ندوات أخرى حول الثقافة الشعبية العربية في تجلياتها المختلفة مع التشديد على أهمية انعقاد ندوة خاصة حول المنهج الأفضل الواجب اتباعه لدراسة الثقافة الشعبية العربية، القديمة منها والمعاصرة على السواء، والثقافة الشعبية بعين المصدر الشفوي والمصدر المكتوب، وغيره من الموضوعات الأساسية حول الثقافة الشعبية بعد أن تمت الموافقة الاجماعية في التوصيات الختامية على أن يتخصص مهرجان قابس الدولي في مجال تعميق الوعي

(* جرت الندوة في قابس - تونس بين ١١ و ١٣ تموز (يوليو)

موضوعات الندوة واتجاهات النقاش

اقتصرت الندوة على مجموعة ضيقة من الباحثين العرب فقط وكانت غالبيتهم من تونس، ومصر، والمغرب ولبنان مع مشاركة دون أبحاث من الجزائر وقطر والكويت. وحملت الأوراق المقدمة الى الندوة العناوين التالية:

- نشوء الآداب الشعبية العربية: الديناميات السوسيو-تاريخية.

- السيرة الشعبية والتاريخ في مصر: الحلم والواقع.

- المثل الشعبي وتشكيل وعي الفلاح في مصر العثمانية، محاولة أولية.

- حول دراسة مفهوم العامة والخاصة.

- هل هناك ثقافة شعبية عربية؟ فرضيات للبحث.

- ثقافة شعبية أم سوسولوجيا المثقفين.

- الظروف الاجتماعية لبروز الشعب والشعبوية.

- ملامح الثقافة الشعبية من خلال الصراع القومي في المجتمع العباسي.

- ثقافة العامة وثقافة الخاصة في مرآة المجتمع التراتبي في المشرق العربي.

- ثقافة العامة في نقابات الخاصة بالمغرب: نموذج الفقهاء.

- الفصح في لغة السيرة الهلالية: مثال «الزناتة وبني هلال».

يتضح من العناوين أن الجانب المنهجي شغل حيزاً كبيراً من الأبحاث المقدمة، وبالتالي كان محور النقاش الأساسي في الندوة إذ لا بد من تحديد مفهوم «الشعب» قبل الشروع بتحديد «الثقافة الشعبية». فمفهوم

الشعب، كمقولة سوسولوجية، قد يعني كل شيء، وقد لا يعني شيئاً محددًا إلا بربطه في الزمان والمكان والفعل الاجتماعي.

لقد طرحت الأبحاث والمداخلات أفكاراً هامة للنقاش أبرزت المستوى الجيد الذي وصلت إليه بعض الكتابات العربية حول مسألة الثقافة الشعبية من مختلف جوانبها. وكان للجانب النظري موقع مميز في الحوار في محاولة لتحديد مفهوم الشعب. ومفهوم الشعبوية، ومفهوم الشعبية عند ارتباطه بالثقافة كصفة محددة لها. ودل النقاش على أن «الشعب» ليس بالضرورة أن يكون من نتاج الشعب ويوجه للشعب نفسه، فهناك روايات وقصص كثيرة سادت لسنوات طويلة في المرحلة السابقة كثقافة شعبية دون أن يكون للشعب دور في صياغتها بل كان المتلقي فقط لثقافة ذات تأثير فيه لكنها من نتاج مثقفين نخبويين حملوا الثقافة بعداً خرافياً لعب دور المخدر للشعب الرزاح تحت وطأة الأمية والتخلف. فباسم تسلية الشعب أو الترفيه عنه كانت الثقافة تحدر الشعب وتبقيه في جهله، ويتم ذلك باسم «الثقافة الشعبية». وكثيراً ما استخدمت الثقافة الواحدة لتسلية الحاكم والمحكوم معاً، الخاصة والعامة على السواء. فكانت الثقافة الشعبية، في الغالب، تعبيراً عن غياب السلطوي أو تغييره بواسطة الحلم الشعبي الذي يرتدي طابع البطل الفرد، المنقذ والمحرر والمتحدي لجيروت الحاكم والمتصر عليه. فهي ثقافة التعبير عن تغييب الحاكم أو غيابه أكثر منها ثقافة حضور الشعب المحكوم حضوراً مادياً ملموساً على أرض الواقع وبالفعل التاريخي الثابت. لذلك ارتدى مفهوم الشعبوية الملتصق بالثقافة حضوراً أكثر تمثيلاً للثقافة الملتصقة بمفهوم الشعب فتصبح ثقافة شعبية. فالثقافة الشعبية نتاج تاريخي واقعي لا اسطوري تبرز مصداقيته من خلال دراسة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لبروز الشعب في العصور الحديثة كقدرة تغييرية للواقع المعاش من جهة،

الشعب على أرض الواقع واستحضاره بشكل غيبي في الروايات والقصص التي لا تحمل من الواقع التاريخي سوى القليل من المصادقية.

لكن مفهوم الشعب في العصور الحديثة أضحى محددًا بسمات واضحة وخاصة على قاعدة نمط الانتاج الرأسمالي والمرحلة التاريخية التي ارتبطت به ولا زالت مستمرة حتى الآن. فالشعب مفهوم قائم بذاته يتضمن قدرة الناس على تغيير واقعهم بأنفسهم، وقدرتهم على التنظيم والانتاج والتعاقد الحر فيما بينهم لضمان مصالحهم الجماعية. وإن الفرد قيمة إنسانية بذاتها تجب المحافظة عليها كطاقة مبدعة وخالقة. وإن حركية المجتمعات الحديثة اعتبرت، في أساسها، أن الانسان الحر منظم للعلاقات الاجتماعية، وأن كل قانون قابل للنقاش تبعاً لمصالح الناس المتعاقدين المتساوين في الحقوق والواجبات. يعني ذلك أن ثقافة الشعب أو الثقافة الشعبية نتاج عقلائي لتلك المقولات التي تؤمن بقدرة الشعب على صنع تاريخه الانساني بنفسه، وأنه أثبت مصداقيته وأهليته لحكم نفسه بنفسه على أرض الواقع في مجتمعات رأسمالية متطورة واشتراكية على السواء. وبالمقابل بأن خطل السياسة القائمة على الانقلابات العسكرية وإلغاء دور الشعب لأنها افتقرت الى إيمان الجماهير بها. كما عجزت الايديولوجيا الشعبوية عن قيادة الجماهير لأن غايتها الأساسية مصادرة حرية تلك الجماهير والحكم نيابة عنها وباسمها. وإن لا صحة إطلاقاً للطروحات التي يروجها الشعبويون عن ضرورة المثقف الوسيط الناطق باسم الشعب. فللشعب قدرة أكيدة في التعبير عن نفسه، وفي تصديده للقوى المسيطرة، وفي تغيير المجتمع انطلاقاً من الواقع الملموس والعمل المتواصل وليس عبر الاسطورة أو الحلم. فالثقافة الشعبية ليست ثقافة بطل فرد يتصدى بمفرده للسلطة المستبدة ويريح الناس من مظالمها. وهي ليست ثقافة اسطورية تبذل الواقع بالحلم، والنضال بالقدرية، والصراع

وكعلاقة مجتمعية حديثة تكمن في تصور عقلائي للمجتمع على قاعدة دور الناس كقوى بشرية حرة قادرة على صنع تاريخها بنفسها. أما مفهوم الشعبوية والثقافة المتصلة به فموقف تقديسي يقوم على الخطاب السياسي الحماسي باسم الشعب ونيابة عن الشعب. فهو خطاب فثوي نخبوي لفئة اجتماعية هامشية نصبت نفسها وكيلاً للشعب ومدافعاً عن مصالحه. لكن خطاب هذه الفئة يثبت، بالتحليل الملموس، أنها فئة مهمشة الى أبعد الحدود وهي أبعد ما تكون عن فهم مصالح الشعب، وليست لها القدرة والنفس الطويل للدفاع عن تلك المصالح. وتطرح مسألة هامة ومعقدة حول من يمثل الشعب، ومن يحق له الدفاع عن مصالحه، وأية ثقافة يمكن أن توصف فعلاً بأنها ثقافة شعبية؟ من حيث المبدأ، لا يمكن القبول بوسيط بين الشعب ومن يمثله. لكن تجارب العالم الثالث تؤكد أن هذا الوسيط موجود على كافة المستويات. فباسم الشعب تحتكر الدولة السلطة وتصادر إرادة الشعب في الأنظمة الملكية والجمهورية على السواء. ويتحول الناس، الأحرار من حيث المبدأ، الى قوى مهمشة بعيدة عن التأثير في صنع تاريخها بنفسها فنصاب بالإجباط وتظهر مختلف أشكال الاستكانة، والقدرية، والقبول بالأمر الواقع. مما يفسح المجال واسعاً أمام الايديولوجية الشعبوية كي تفعل فعلها. وتكثر الخطابات السياسية التي تبدأ بالقول «أحبك يا شعب»، «أقدسك يا شعب» لتنتهي بـ«عاش الشعب» و«يحيا الشعب مصدر كل السلطات». إنه الخطاب السياسي الذي ما انفك يتردد في العالم الثالث كله، والعالم العربي منه بخاصة. لقد وضع الشعب بين فكي نخب قمعية متسلطة، ونخب محرومة من السلطة تحاول الوصول إليها بالحديد والنار والانقلابات الدموية. وهذه النخب جميعاً تصدر إرادة الشعب وتلغيه وهي توقع يوماً عشرات البيانات السياسية نيابة عنه وباسمه، وما الثقافة الشعبوية، في هذا الإطار الاجتماعي المعقد، سوى ثقافة تغييب

بالصالح، والدفاع عن الحق المعتصب بالرضوخ للظالم وتقبيل اليد التي تغتال آمال الشعب وأحلامه، فالثقافة الاسطورية أو بالأصح التي لا تاريخ لها على أرض الواقع ليست ثقافة شعبية بل مناهضة لها. والبطل الشعبي ليس اسطورة أو حلماً لا وجود تاريخياً له بل قائد تاريخي محدد في الزمان والمكان، وله شخصية إنسانية تمتاز بالابحافية والسلبية معاً.

لذا لا بد من ربط الثقافة الشعبية بالبنية الاجتماعية التي انتجتها. ولا بد من قراءة الأمثال الشعبية، والقصص، والنوادر، والنكات، والسير وغيرها في ضوء واقعها التاريخي الذي ظهرت فيه. فهي تعبير صادق عن آلام الناس وأحلامهم بأشكال فنية وأدبية مختلفة. ومن أولى واجبات علماء الاجتماع العرب في هذا المجال القيام بدراسات وصفية تبرز الواقع العربي في حركيته المستمرة وتحدد مواقع الثقافة الشعبية فيها. ومن المهمات الأساسية الملقاة على عاتقهم كذلك الإجابة عن التساؤلات المنهجية حول الاسطوري أو الخرافي والواقعي في تراثنا الشعبي العربي. ولمصلحة من ينشر ويضخم الجنب الخرافي في هذا التراث، ومن هي القوى الاجتماعية الطبقية المعاصرة التي تساهم في نشره، وما هي الغاية أو الأهداف التي تتوخاها من ذلك؟ فالثقافة الشعبية تعبير اجتماعي طبقي، وفي الوقت نفسه تعبير إنساني شمولي يتجاوز حدود الانسان المقهور أو المحوق، والطبقات الفقيرة والكادحة الى حدود الانسان كإنسان أي حدود المجتمع الشمولي. ومن الضروري الاستفادة من مناهج العلوم الانسانية المختلفة الى جانب علم الاجتماع لدراسة الموروث الشعبي وتحليله من الخرافي واللاتاريخي واللاعقلاني. ومن الأسئلة المنهجية كذلك تحديد تاريخ الانتاج الشعبي. فهل يتوقف أو يمكن إعادة إنتاج جوانب منه رغم التبدل في طبيعة المرحلة التاريخية وعلاقات الانتاج؟ وهل هناك ثقافة شعبية قادرة على التواصل منذ القدم حتى الآن ولها طابع

لقد نالت الإجابة عن هذه التساؤلات المنهجية نصيباً وافراً من النقاش العلمي الهادئ. وبرزت وجهات نظر متغايرة أحياناً لدرجة التناقض. فمفهوم الثقافة الشعبية يثير الكثير من المقولات حول العلاقة المحددة تاريخياً بين البنية الاجتماعية والثقافة، وبين ثقافة العامة وثقافة الخاصة ومدى تمثيلهما للشعب، والثابت والمتغير في الثقافة الشعبية، وتبدل الثقافة الشعبية عبر العصور أم تبدل الأشكال الأدبية والفنية في التعبير عنها، واستمرارية الثقافة بشكل تواصل زمني أم تواصل مشوب بانقطاعات كبيرة أو صغيرة عبر التاريخ. وطرحت أسئلة منهجية كثيرة لتحديد مفهوم الخاصة ومفهوم العامة في المجتمع العربي إبان المرحلة العثمانية الطويلة. وهو مفهوم يرتبط وثيقاً بالانقسام الاجتماعي في الأرياف والصحاري والمدن وهل عرف المجتمع العربي التراتب الاجتماعي على الطريقة الأوروبية أم تداخلت فيه العامة والخاصة، الأشراف والأعيان، الفلاحون والطوائف الحرفية، التجار وزعماء العشائر، وغير ذلك من الفئات الاجتماعية في وحدة مجتمعية متداخلة لا تشكل طبقات تراتبية بعضها فوق البعض الآخر.

وحظيت المقولات الهامة التي وردت في بحث «ثقافة شعبية أم سوسولوجيا المثقفين» بنقاشٍ واسعٍ وعميقٍ خاصة ارتباط الثقافة الشعبية بالسياسة، لأن السمة الأساسية للمجتمع العربي الراهن في هذا المجال تكمن في تحليل الحقل الثقافي السياسي السائد الذي يجاوره

الشعبية في المجتمع العربي، وكلها أسئلة بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث العميق.

بعض الملاحظات الختامية

عند تحليل موضوع «الثقافة الشعبية» تطرح جميع المشكلات الأساسية في الوطن العربي الحديث والمعاصر لأن الحاضر يستدعي الماضي على الدوام إما لعقلانية معاصرة تحاول نقد اللاعقلانية الماضية بهدف القطع معها والاحتفاظ من الماضي بما هو عقلائي فقط، وإما لسلفية معاصرة تستدعي سلفية الأُمس لتسكنها في الحاضر وتقطع الطريق على التغيير والتطوير باسم الأصالة، والاحتفاظ على الهوية، والتمسك بالتراث، ورفض الفكر الدخيل والمستورد، وإحياء الثقافة الشعبية الموروثة. . . الخ. دلالة ذلك أن الثقافة الشعبية موضوع هام ويختزل الكثير من المشكلات العربية الراهنة، وي طرح في الوقت نفسه مشكلات التغيير وآفاقه المرتقبة في الوطن العربي.

فبين دعاة تغيير الواقع العربي بالحلم الاسطوري أو الخرافي الذي ساد لسنوات طويلة في التراث الشعبي وتمحور حول البطل الشعبي القادر على التغيير، وبين الدعوة إلى تغيير هذا الواقع بالعلم والعمل الدؤوب والعقلانية الصارمة تتوضح الكثير من السمات المنهجية حول الموقف العربي الراهن من الثقافة الشعبية في الوطن العربي. لقد طرحت الندوة كيفية التعاطي العقلاني مع التراث الشعبي العربي الذي تضمن الكثير من السمات اللاعقلانية. فالثقافة الشعبية جزء لا يتجزأ من التراث الشعبي الذي لا يمكن تفسيره إلا بالتاريخ حتى تصبح الثقافة الشعبية ركناً فاعلاً في هذا التاريخ وسلاحاً مادياً تناضل به الجماهير الشعبية دفاعاً عن تحررها الاجتماعي والطبقي والوطني والقومي والانساني الشامل. لذلك يجب إخراج مفهوم الثقافة الشعبية من دائرة الفسولكلور التجاري من جهة، واللاعقلاني الخرافي من جهة أخرى. وهناك بلدان كثيرة سبقتنا الى تخلص ثقافتها الشعبية من

وينفعل به حقل أو حقول ثقافية مهمشة، وان التفكير السياسي المستمر في العالم العربي قاد إلى بروز نخبوية ثقافية مهمشة، جعلت الحديث عن الثقافة في الوطن العربي مقروناً، بالدرجة الأولى، بتناول بعض المثقفين العرب كمنتجين للثقافة. وهنا تطرح الإشكالية الهامة: هل هناك ثقافة شعبية عربية متميزة في ذاتها أم أن لكل مثقف عربي نظرة خاصة به يحاول إعطاءها صفة الشمولية أو التراث الشعبي مما أدخل الثقافة والمثقفين العرب في إطار النمطية أو الكلام على أنماط من المثقفين والثقافة: كالمثقف الكولونيالي، والمثقف الوطني، والمثقف التقدمي، والمثقف الجمالي، والمثقف العضوي.

وكانت المناقشة غنية جداً حول مفهوم الوحدة والمغايرة وكيفية التعاطي الثقافي معها في الوطن العربي. وإن من الضروري الابتعاد عن البعد الواحد للثقافة فالتغيير الثقافي موجود على أرض الواقع وليس في رؤوس المثقفين وكل محاولة لقهق الثقافات الأخرى تحت ستار التوحيد الثقافي عملية تعسفية تقود إلى ردات فعل عنيفة تجاه الثقافة العربية باعتبارها قاعدة التوحيد الثقافي ولحمته في الوطن العربي، ولها دور أساسي في تكوين المسار الوطني والتقدمي لحركة الجماهير الشعبية في المغرب والمشرق على السواء. وهي قادرة على الاستيعاب والابداع والتعاطي مع الثقافات الأخرى، الداخلية والخارجية على السواء، من موقع المحاور لا من موقع القامع أو التابع. وكانت محصلة النقاش مزيداً من الأسئلة المنهجية التي تطرح نفسها على الباحثين في شؤون الثقافة الشعبية في الوطن العربي وأبرزها علاقة المثقف بالشعب وبالثقافة الشعبية وموقعه في عملية التغيير الاجتماعي، ومسألة الوحدة والمغايرة في الثقافة الشعبية، ومسألة تصنيف أو تنميط المثقفين، والعلاقة الجدلية بين الهوية والثقافة الشعبية، وثقافة الخاصة وثقافة العامة في مرآة التراتب الاجتماعي والانقسام الطبقي، والثقافة الشعبية في علاقتها بالسلطة السياسية، والعلاقة المميزة بين القيم الدينية والثقافة

هذه السمات السلبية وأعطتها بعداً عقلياً وفنياً خلاقاً
يساهم في تعميق وعي الجماهير لا في تضليلها وتسليتها .

ومع طرح مسألة رؤيتنا المعاصرة لثقافتنا الشعبية يبرز
العجز في استعادة التراث الشعبي السابق بتقاليدته التي
كانت سائدة (الحكواتي، الاعراس، القصص الشعبية
الخرافية، القصص الدينية . . .) لتحل مكانها أساليب
فنية وإبداعية ذات قيمة جمالية تثقف الجماهير الشعبية
وتدخل الثقافة الشعبية في دائرة التأثير الحضاري المحلي
والعالمي . وتواجه الثقافة الشعبية الموروثة مشكلات
الاندثار بسبب تبدل الانتاج وعلاقات الانتاج من جهة،
وغزو الأساليب الغربية لعقول الناشئة العربية عبر
التلفزيون والفيديو والأفلام السينمائية والمجلات وغيرها .

وتطرح اليوم مسألة هامة حول قدرة ما تبقى من
الثقافة الشعبية على مواجهة تحويلها الى فولكلور تجاري
تستفيد منه القوى المسيطرة من جهة، والى دوائر مغلقة
في بعض الأحياء الفقيرة من جهة ثانية وسط هجوم
عنيف للثقافة الاستهلاكية التي تبثها أجهزة الاعلام
السائدة .

إن الباحثين الاجتماعيين العرب، في جميع حقول
الدراسات الانسانية، مدعوون لتحمل مسؤولياتهم
لمواجهة ما تتعرض له الثقافة الشعبية في المجتمع العربي
من مخاطر الاندثار والتشويه حتى أن اسرائيل لا تتورع
عن اقتباس التراث الشعبي الفلسطيني، في جميع
المجالات، وتقديمه كتراث اسرائيلي تنشره في العالم كله .
ولعل البحوث الميدانية المكثفة تشكل الخطوة الضرورية
التي لا بد منها لحفظ الثقافة الشعبية وتوثيقها ونقل

الشفوي منها إلى حقل التدوين . ولا بد من تطوير
أساليب البحث العلمي الاجتماعي العربي والدخول في
تحديد علمي دقيق للمفاهيم والمصطلحات السائدة في
الوطن العربي حتى تتمكن الاستفادة من الأبحاث الميدانية
التي تجري في أكثر من بلد عربي . ومن الضروري كذلك
توسيع وقعة المراكز العلمية للبحث الاجتماعي وتعزيز
التعاون المثمر بين الباحثين الاجتماعيين العرب،
والاستعانة بتجارب الشعوب الأخرى في تعاطيها مع
تراثها الشعبي وذلك بدعوة باحثين أجانب للمشاركة في
الندوات العلمية التي تتناول مسألة «الثقافة الشعبية في
المجتمع العربي» . إن التراكم المعرفي، الكمي والنوعي،
شرط ضروري لتطوير البحث العلمي العربي وتعميق
الحوار بين الباحثين العرب من جهة، وبينهم وبين
الباحثين الاجتماعيين من غير العرب، وصولاً إلى فهم
دقيق للثقافة الشعبية ودورها التاريخي والمستقبلي في تطوير
الوطن العربي . وأفضل الندوات العلمية تلك التي توصي
بتعميق البحث العلمي وتجنب الجاهز والمألوف من
الحلول المطروحة منذ عشرات السنين لمعضلات أساسية
لا زالت تزداد تعقيداً وتشابكاً . فالبحث العلمي الموغل
في التخصص والتعمق هو وحده الكفيل بتقديم حلول
للمعضلات الكبرى يمكن تطبيقها بمقدار ما تتحول
الجماهير الشعبية من السلبية تحت وطأة القمع الى الفعل
الاجباي انطلاقاً من فهم موقعها التاريخي كقوة فاعلة في
التغيير وصناعة المستقبل . وإن لا حل إلا بمشاركة هذه
الجماهير لتطبيق الحلول الأفضل لمصلحة الناس، كل
الناس . عندئذ تبرز الثقافة الشعبية كقوة روحية خلاقة في
التغيير الاجتماعي .